مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

الانعكاس الذهني للإبل في المثل العربي(*)

د/ لطيفة بنت سعود العصيمي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
قسم اللغة العربية، الكلية الجامعية بالليث
جامعة أم القرى - السعودية
lsusaimi@uqu.edu.sa

*) تاريخ تسليم البحث 7/6/2025 تاريخ قبوله للنشر 6/8/2025
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

الانعكاس الذهني للإبل في المثل العربي

د/ لطيفة سعود العصيمي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
قسم اللغة العربية، الكلية الجامعية بالليث
جامعة أم القرى - السعودية

الملخص

تبحث هذه الدراسة في الانعكاس الذهني للإبل في المثل العربي، حيث تقوم الفكرة البحثية على الربط بين الفن النثري الشعبي والفن البلاغي، وتثير الدراسة إشكالات عدة منها: كيف تكونت صورة الإبل الذهنية؟، وما أثر الإبل في بناء التشبيه؟، وكيف نفسر التقابل بين المثل العربي والتشبيه؟، وكيف تؤثر البنية الذهنية في مضرب المثل؟، وتصل الدراسة إلى حل تلك الإشكالات من خلال استقراء الأمثال العربية التي جاءت في الإبل وما يتصل بها، وتحليل بنيتها، وطريقة تكوينها، واشتغالها في العقلية العربية، عبر منهج التأويل التقابلي، واقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، احتوت المقدمة على أهمية الموضوع، ومشكلة الدراسة وأسئلتها، والدراسات السابقة، والمنهج المتبع، وهيكل البحث، ثم التمهيد ويتناول حضور الإبل في العقلية العربية، وأهميتها ومكانتها، ودخولها إلى الحيز اللغوي، ثم المبحث الأول وفيه معنى الانعكاس الذهني، والمثل العربي وبنيته الإبداعية، ثم المبحث الثاني ويتناول التقابل بين التشبيه والمثل العربي، ثم المبحث الثالث يتناول جملة من الأمثال العربية وتحليلها، وسبر أغوارها الذهنية، وأبعادها اللغوية والثقافية، وأثر ذلك في دوائر المعنى، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج.

الكلمات المفتاحية: الإبل، الانعكاس الذهني، المثل العربي، التشبيه.

The mental reflection of camels in the Arabic proverb

Dr. Latifa Saud Al-Osaimi
Assistant Professor of Rhetoric and Criticism
Department of Arabic Language, Al-Leith University College
Umm Al-Qura University, Saudi Arabia

Abstract

This study examines the mental representation of camels in Arabic proverbs, connecting prose with rhetorical art. It addresses key questions: How was the mental image of camels formed? What is their role in constructing similes? How do Arabic proverbs relate to? similes? How does mental structure influence proverbs.

The study analyzes Arabic proverbs about camels through comparative interpretation methodology, examining their structure, formation methods, and function in Arab mentality. This approach reveals the deep cultural significance of camels in Arabic linguistic heritage .and their symbolic value in traditional wisdom.

The research is organized into an introduction, preface, three chapters, and conclusion. The introduction presents the topic's significance, research questions, previous studies, methodology, and structure. The preface explores camels in Arab mentality, their historical importance, cultural status, and their entry into linguistic domains. Chapter one defines mental representation and examines Arabic proverbs' creative structure and rhetorical devices. Chapter two contrasts similes with Arabic proverbs, highlighting their distinctive features and interconnections. Chapter three analyzes selected proverbs, exploring their mental, linguistic, and cultural dimensions and their impact on semantic fields. The conclusion summarizes the key findings and their implications for understanding Arabic rhetorical traditions.

Keywords: camels, mental representation, Arabic proverbs, simile.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد.

فللإبل أهمية بالغة في حياة العرب، فما زالت تكبر في نفوسهم، وتأخذ بتلابيب اهتمامهم، حتى استقرت في أذهانهم، واستوطنت في وجدانهم، وعبرت شعاب أفكارهم، فلا غرو أن تؤثر في البلاغة الإنتاجية، والنصوص الإبداعية، والمواقف الخطابية، ومن هنا جاءت فكرة هذه الدراسة لتبحث في الانعكاس الذهني للإبل في المثل العربي السائر، فالأمثال العربية تقال في موقف، فتمضي بعده تشق طريقها عبر العصور، مستحضرة الموقف الأصل، فتستثير الأذهان، وتستنطق العقول، وتستميل القلوب، فتنهمر شآبيب التشبيه، كأنها أمثال صغرى تعيد الموقف عبر تشكلات بلاغية.

وتقوم الفكرة البحثية على الربط بين الفن النثري الشعبي والفن البلاغي، إذ توجد علاقة بين التشبيه البلاغي والمثل العربي، ترجع في أساسها إلى بنيات ذهنية، وخلفيات ثقافية ومعرفية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في كيفية تمظهر التشبيه من خلال المثل العربي، وتوسيع دوائر المعنى البلاغي، مع ربط السياقات الصغرى داخل النص بالسياقات الكبرى خارج النص، عند تكون الصور البيانية بحيث تقدم قراءة ثانية لفن التشبيه، من خلال موروث ثقافي عريق يتمثل في الإبل.

أسئلة الدراسة:

تسعى هذه الدراسة للإجابة على الأسئلة التالية:

١- كيف تكونت صورة الإبل الذهنية؟

٢- كيف تنعكس الصورة الذهنية في النص الإبداعي؟

٣- ما أثر الإبل في بناء التشبيه؟

٤- ما علاقة نشأة المثل العربي باشتغال التشبيه في النص؟

٥- كيف تؤثر البنية الذهنية في مضرب المثل؟

٦- ما مستويات التشبيه في المثل العربي؟

٧- كيف يؤثر الانعكاس الذهني على تداولية نصوص الإبل؟

٨- هل تغير سيرورة المثل الزمنية في معانيه البلاغية؟

منهجية الدراسة وأدواته الإجرائية:

استقراء الأمثال العربية التي جاءت في الإبل، وما يتصل بها، وتحليل بنيتها، وطريقة تكوينها، واشتغالها في العقلية العربية، وربط ذلك بمكونات التشبيه البلاغي، وأبعاده الفنية والتداولية، عبر منهج التأويل التقابلي، حيث يشتغل التحليل التأويلي من خلال استراتيجية التقابل، وهو التواجه بين المعاني لإحداث تجاوب ما بينها؛ بغية الوصول إلى حقائق كامنة في النص، وسبر أغواره، والكشف عن أسراره، وتتبع رحلة المعنى عبر الدوائر التأويلية.

الدراسات السابقة:

تناولت الإبل دراسات كثيرة، متعددة الجوانب، مختلفة الموارد، منها:

١- التشبيهات بالإبل وأحوالها في الحديث الشريف، محمد أحمد أبو زيد حسن، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، ع ٣١، ج ٢، جامعة الأزهر- كلية اللغة العربية بأسيوط، ٢٠١٢م.

٢- صورة الإبل في رجز رؤبة بن العجاج: التشكيل والوظيفة مقارنة وصفية، علي أحمد موسى الحضريتي، مجلة الدراسات العربية، ع ٤٩، مج ٥، جامعة المنيا – كلية دار العلوم، ٢٠٢٤م.

٣- التصوير بالإبل وهيئاتها وأحوالها في القرآن الكريم، الحسن عبد اللطيف محمد اللاوي، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، ع ٣٥، ج ٣، جامعة الأزهر – كلية اللغة العربية بأسيوط، ٢٠١٦م.

٤- تعميم الدلالة في ألفاظ الإبل، عبد الرزاق بن فراج الصاعدي، الدارة، مج ٢٣، ع١، دار الملك عبدالعزيز، ١٩٩٧م.

وهذه الدراسة تعنى بدراسة التشبيه العميق في أمثال الإبل العربية، متمثلا في الانعكاس الذهني، وبحث البنية الذهنية لتلك الصور؛ للوصول إلى تفسير مختلف لتلك الأمثال.

واقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، تناولت المقدمة فكرة البحث وأهميته وأسئلة الدراسة ومنهجية البحث وأدواته والدراسات السابقة، ثم التمهيد يتناول حضور الإبل في العقلية العربية وأهميتها، ومكانتها، ودخولها إلى الحيز اللغوي، ثم المبحث الأول وفيه معنى الانعكاس الذهني، والمثل العربي وبنيته الإبداعية، ثم المبحث الثاني ويتناول التقابل بين التشبيه والمثل العربي، ومستويات التشبيه في سياق المثل، والعلاقة بين مكونات التشبيه وعناصر المثل العربي، ويأتي المبحث الثالث بمثابة التطبيق لما سبق، حيث يتناول جملة من الأمثال العربية، وتحليلها وسبر أغوارها الذهنية، وأبعادها اللغوية والثقافية، والبنيات النصية، والنسقية، وأثر ذلك في دوائر المعنى، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج.

التمهيد:

عاش العربي في شبه الجزيرة العربية في صحراء شاسعة، يقضي حياته في حل وارتحال، فارتبطت مكونات الصحراء بحاجته الطبيعية، والنفسية، والاجتماعية، وأثرت في ثقافته ووجدانه، خيمة وجمل تنبثق منها تصوراته عن العالم والحياة، في شموخ وإباء، تلك هوية العربي كما قال جاسم الصحيح:

ولو كانت الصحراء ثوبا خلعتها وألقيتها عني ولكنها جلد![1]

تلك المعاني انطبعت في ذاكرة العرب، وسرت في وجدانهم، وشكلت لغتهم وطريقة خطابهم، حتى قيل للجمل "سفينة الصحراء"، فهو يحملهم ويحمل بهم ولهم، وليس في قولهم "سفينة" إلا مقابلة المركب بالمركب فحسب، وإنما تتقابل عندهم الصحراء بالبحر، والبحر رمز العطاء والجود، وكذلك الكرم، صفة العربي المتأصلة، وما ذاك إلا اتساع نفس العربي، وسعة أخلاقه، يركب الصحراء ويحدو للجمل، فتطرب الحياة ويطيب العيش، والإبل أنفس أموال العرب، وفي الحديث: (الإبل عز لأهلها)[2]، فهي عندهم غاية النعم، ومنتهى الحلم.

---

(١) موقع الشاعر عبر منصة إكس.

(٢) سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٧٧٣.

ودخلت الإبل حيز اللغة من جوانب عدة، فقد كثرت الكلمات والتراكيب المستخدمة في "الدلالة على معانٍ أخرى لا صلة لها بالإبل، مع أن تلك الكلمات، والتراكيب وضعت أصلا للدلالة على معانٍ مرتبطة بالإبل، مما يرجع أن الإبل كانت أصلا من أصول التعبير العربي"(١)، وقد فطن العلماء الأوائل لذلك، فصنفوا كثيرًا في الإبل وألفاظها، مما يثير دهشة القارئ، فكثير من التعبيرات المستخدمة في الحياة اليومية يعود في أصله إلى الإبل، مما يدل على ترسخ تلك الصور في الذهنية العربية، فمن ذلك: لفظ البَرَكة، واشتقاقه من برك البعير إذا أناخ في موضع فلزمه، ولفظ الجاسر والجسور، أي الشجاع الجريء المقدام، وأصل هذا المعنى منقول من صفات الإبل، ولفظ الحشو والحاشية، والحشو من الناس الذين لا يعتد بهم، ولا يعتمد عليهم، والحشو من الكلام الفضل الذي لا خير فيه، وأصل ذلك أن الحشو هو صغار الإبل، وكذلك الحنين، أصله في اللغة ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها، والراوية نقل الخبر جيلًا عن جيل، والأصل في اللغة أن الراوية هو البعير الذي يسقى عليه الماء، والزميل والزمالة والمزاملة أصلها الرديف على البعير، والقطار والقاطرة في عرفنا اليوم وسيلة حديثة من وسائل النقل، والقطار في أصل اللغة عند العرب أن تشد الإبل على نسق، واحدا خلف واحد(٢).

ولم يقتصر ذلك على التوسع في الألفاظ الدالة على الإبل فحسب، وإنما أثرت كذلك في طرائق التصوير، واستعمال اللفظ في ضروب البيان، على وجه يدق معه فهم الصورة، ما لم يكن القارئ عالما بأحوال الإبل، كما في قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾(٤)، فالصورة التي عليها الكفار هي الإسراع نحو الداعي، لكن هذا الإسراع له هيئة خاصة، فالإهطاع هو من أحوال سير الإبل، يراد به صفتان: (صفة في الخلقة، وصفة في حال السير، أما الصفة التي في الخلقة فهي تصويب العنق، وأما الصفة التي في حال السير فهي الإسراع، فهم مسرعون نحوك مادّين أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك)(٥)، ومن ذلك صورة الإبل في معلقة امرئ القيس عند قوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... عـلي بأنـواع الهـموم ليبتلي
فقـلت لـه لما تمطـى بصـلبه ... وأردف أعجـازا وناء بكـلكـل
ألا أيـها الليل الطـويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

(١) أثر الإبل في خيال العرب، حمد النيل محمد الحسن إبراهيم، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج ٢٥، ع ١٨، ص ٤٥ ـ ٦٤، ٢٠٠٣م.

(٢) ينظر: تعميم الدلالة في ألفاظ الإبل، عبد الرزاق بن فراج الصاعدي، الدارة، مج ٢٣، ع ١، دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٧م، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٣) سورة القمر: ٨.

(٤) سورة المعارج: ٣٦.

(٥) التصوير بالإبل وهيئاتها وأحسوالها في القرآن الكريم، الحسن عبد اللطيف محمد اللاوي، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، ع ٣٥، ج ٣، جامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية بأسيوط، ٢٠١٦م، ص ١٩٦٢.

فهذا الليل الحزين، المليء بالهموم، جاء في صورة البعير الذي ينوء بالقيام، فقوله "تمطى بصلبه" أي مد ظهره أولًا ثم أردف أعجازًا، أي قام بمؤخرته أولًا، فصار الحمل الكبير على صدره، والكلكل الصدر، وهذه صفة نهوض البعير، ومثل هذه الصور يدل على تجذر الإبل وأحوالها في نفس العرب، وظهور الانعكاسات الذهنية في الإنتاج الإبداعي.

المبحث الأول: عتبات الانعكاس الذهني والمثل العربي.

اللغة ذات طبيعة ذهنية، فالنص الإبداعي قبل أن يولد لا بد أن يسير في مسارات ذهنية لدى المبدع، ترفدها مؤثرات اجتماعية، وثقافية، ومعرفية، وكل صورة في النص يقابلها صورة معادِلة في الذهن، سواء كان ذلك لحظة الإنتاج الأدبي، أو تلقي النصوص، أي على مستوى البلاغة الإنتاجية، أو التأويلية، فتتقابل الصورتان ويحدث بينهما التفاعل، فعند القول مثلًا :بأن عمر كالأسد، فإن صورة الأسد الحقيقية تكون حاضرة في الذهن، لكون الأسد سبع معروف، لكن الذهن لا يعالج هاتين الصورتين بمعزل عن المؤثرات الفكرية، والثقافية، والمعرفية لدى المتلقي، فهو دون ريب لا يعتقد أن عمر حيوان مفترس، إنما ينتزع صفة الشجاعة من الأسد، ثم تتشكل في صورة أسد افتراضي يحمل هذه الصفة فحسب، فتمتزج صورته في عمر، وهذه طبيعة مركبة في العقل البشري، أن يقرن بين الأشباه والنظائر، وتأتي مرحلة أكثر عمقًا، وأوسع تأثيرًا، وهي مرحلة الانعكاس، وهي تعني أن الذهن قد تشرب الصورة بكل ما فيها حتى نسيها، وتحولت لمؤثر ذهني دون وعي، وهذا يدل على أن الصور قد تجذرت في النفس، بحيث يرى المتلقي انعكاساتها في النص أولًا، ليكتشف من خلال الانعكاس الذهني تلك الصور الضاربة في العمق، فالانعكاس الذهني قوة معرفية مؤثرة في تأليف النص، تتصل بالعقل الجمعي، والتجربة الإنسانية.

فمعنى الانعكاس في اللغة: من قولهم (عكس البعير يعكِسه عَكسًا وعِكاسًا: شد عنقه إلى إحدى يديه وهو بارك، وقيل: شد حبلًا في خطمه إلى رسغ يديه ليذل؛ والعِكاس: ما شده به، وعَكس رأس البعير يعكِسه عَكسًا: عطفه، وعكس الشيء جذبه إلى الأرض)[1].

والانعكاس الذهني في مصطلح البحث يعني تلك المعارف، والتجارب، والخبرات التي اختزنت في الذهن، عبر تراكمات ثقافية وزمنية، حتى وصلت لمرحلة النسيان، ثم تحولت لنشاط سلوكي من نوع ما، فإذا خرج في نشاط لغوي كان التشبيه، فالانعكاس الذهني بنية عميقة للتشبيه، تجعل المعرفة تنعكس في النص، وقد يكون في غير التشبيه كالاستعارة، والكناية، ونحوها، من الفنون البيانية التي تتطلب وجود صورة ذهنية، وتقوم على علاقات الربط بين المعاني، فالصورة الموجودة خارج الذهن، لها ارتباط بصورة ذهنية قد لا تكون هي نفسها، لكنها تؤثر في بناء النص من ناحية، وفي فهم النصوص من ناحية أخرى، فالأفكار (والخواطر مهما بدا أنها مبتدعة وجديدة تعود في الأصل إلى أفكار بسيطة حدثت من سابق تجربة أو شعور، وكل ما فعله الذهن أنه قام بتركيبها بشكل ما)[2].

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، الحواشي لليازجي وجماعة من اللغويين، ط ٣، دار صادر، بيروت، ج ٦، ص ١٤٥

(٢) مباحث في الدلالة الإدراكية عند العرب، عبد الرحمن بن حسن البارقي، مجلة كلية دار العلوم، ع ٨٤، جامعة القاهرة – كلية دار العلوم، ٢٠١٥م، ص ٤٤٣

فالصورة الذهنية ليست هي الصورة الحقيقية، وإن حملت جزءًا من الحقيقة، فلفظ الجمل يحتمل أمورا ثلاثة: الرمز الدال في اللفظ المحيل عليه، فالجيم والميم واللام رموز تحيل على صورة خارجية، وتحتمل الصورة الخارجية المرئية بالعين، وهو الحيوان المعروف، وتحتمل الصورة الذهنية التي تنعكس في الذهن، وهذا لا يعني أن مفهوم الصورة الخارجية هو الذي حل بالذهن، لأن صورة الجمل الذهنية تعني كل ما يحمله هذا الحيوان من أبعاد ثقافية واجتماعية، وإن لم يدل عليها سياق خارجي، فالإبل ليست معجمًا لفظيًا فحسب، لكنها حياة كاملة يعتمد عليها العرب، حيث هي صورة مستقرة في الأذهان، ولا عجب أن يرونها ويروونها، لكن العجب أن يستمر هذا الانعكاس طويلا، في ظل تطور المراكب، وتبدل الأحوال.

ويظهر أثر الانعكاس الذهني بعد طول التأمل في النص، ودوام التفكر، ولهذا دعا القرآن الكريم للنظر في الإبل، فقال الله تعالى:﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[1]، والتعبير بالنظر يحمل معنى التأمل، "فالنظر تأمل الشيء بالعين"[2]، وتكرار النظر إليها يبعث في النفس الهمة لمطالعة عجائبها وغرائبها، ويلفت الذهن لمعاني أحوالها وطبائعها، وهي مما تعرف العرب، فترسخ تلك المعاني في الأذهان، ويعطي الخطاب قوة الحجاج، وبراعة البيان مع وضوح البرهان، فتتجلى قدرة الله تعالى وعظمته في الخلق والأمر، فالتأمل فيما تعرف وتألف، يظهر مكنونات النفس، وخفايا الفكر، فهو تأمل في المعقولات قبل أن يكون تأملًا في المحسوسات. فليست الإبل حيوانات تأكل وتشرب وتقوم بنفسها ولغيرها، لكنها شيء عميق في نفس العربي وفكره.

وكما تسير الإبل تسير معها المعاني، فالعرب تضرب المثل بالإبل، والمثل فن نثري أصيل، ظهر في زمن متقدم لا يرتبط بظهور العرب، فهو من التجارب الإنسانية العريقة، والمثل عبارة موجزة تحكي موقفًا، أو قيلت في موقف، ثم مضت تتكرر في مواقف مشابهة، والمثل العربي: (نص عربي نثري قصير أطلق على مناسبة معينة، ثم ضُرب فيما بعد على مناسبة أخرى بجامع التشابه في بعض الجوانب بين المناسبتين، من دون تغيير في صيغة النص)[3]، والهدف من ضرب المثل هو استدعاء التجربة السابقة في الذهن، لأن التوافق في الأحداث توافق في النتائج كذلك، فتدل صيغة المثل على الحكمة الحياتية التي تحملها، لا حقيقة الموقف الذي قيلت فيه.

وتتميز الأمثال العربية عن فنون النثر بإيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، والذيوع والشهرة، فليس كل قول موجز بليغ ذي حكمة يصبح مثلًا، إلا إذا سار وتلقاه الناس بالقبول، والموافقة، والاستحسان، فتأليف الأمثال مرتبط بالمواقف الاجتماعية، وطبيعة المتلقي، ويكثر في مواقف الأمثال مقولة: "ذهبت مثلًا"، حيث لم يكن يعلم المتكلم بمقدار شيوع قولته واشتهارها، فالمثل وليد البيئة التي أنتج فيها، وقد لا يكون في تلك القولة من البلاغة

(١) سورة الغاشية: ١٧.

(٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، ج ٥، ص ٢١٥.

(٣) المثل العربي: دراسة لغوية تحليلية، عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي، مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٧، ع ٢، جامعة العلوم الإسلامية العالمية – عمادة البحث العلمي، ٢٠٢٠م، ص ٤٧٩

والبيان ما يكون في الشعر، فالأمثال لا تشتهر للفظها، كما هو حال الشعر، فالشعر بلاغته ذاتية في تركيبه، أما الأمثال فبلاغتها اجتماعية ثقافية خارج نصه غالبًا، وقلما تُقصد البلاغة في تشكيله، فلغته محكية، تعتمد على ثقافة مبدعه، ومعرفته باللغة، فربما وقع الخطأ النحوي في المثل، فسار أعرج بخطئه، إذ لا يجوز تغيير نص المثل، جاء في المزهر: (هكذا جاء الكلام وإن كان ملحونًا لأن العرب تجري الأمثال على ما جاءت ولا تستعمل فيها الإعراب)[1].

فالمثل يحمل معاني عميقة يختزلها من الموقف الحكيم، وكأن جملة المثل هي حبكة الموقف، فهي ما يبقى في ذهن المتلقي ويستحث تأمله، فيسير في الدهر باعثًا إليه كل موقف مشابه، فتشرئب إليه أعناق المعاني، تستميل النفوس والأفهام، فمن ذلك قولهم في المثل السائر: "يداك أوكتا وفوك نفخ"، فقد ذكر المفضل الضبي في الأمثال: (وزعموا أن قوما كانوا في جزيرة من جزائر البحر في الدهر الأول، ودونها خليج من البحر، فأتاها قوم يريدون أن يعبروها فلم يجدوا معبرًا، فجعلوا ينفخون أسقيتهم ثم يعبرون عليها، فعمد رجل منهم فأقل النفخ وأضعف الربط، فلما توسط الماء جعلت الريح تخرج، حتى لم يبق في السقاء شيء، وغشيه الموت فنادى رجلًا من أصحابه أن يا فلان إني قد هلكت، فقال: ما ذنبي يداك أوكتا وفوك نفخ، فذهب قوله مثلًا)[2]، وهي تجربة إنسانية متكررة، فالقصة اختزلت في مقولة "يداك أوكتا وفوك نفخ"، فأحداث القصة تدور على هذا الفعل، إلا أن هذه المقولة تحمل حكمة خفية، فالإنسان رهين أفعاله.

والمتأمل في بنية المثل "يداك أوكتا وفوك نفخ" في معزل عن تلك القصة وأبعادها، يجدها جملة خبرية تخلو من فنون البلاغة، يراد بها الإخبار المحض، فلماذا حظيت بالشهرة وغدت مثلًا؟ ذلك أن ثمة عوامل خارج النص، منها أن العرب أمة تعتمد على الرواية، فمعرفة الأخبار والأيام والوقائع والأشعار مرتبط بتلك المجالس، وهذا يعطي قصة المثل شيوعًا، ومنها أيضا أن جملة المثل تختزل القصة كاملة، أو تعطي الحكمة من المشهد، والعاقل يحب أن يسمع ما فيه إفادة، ويعرض عن لغو القول، ومنها أن لغة المثل بسيطة تناسب طبقات المتلقين، ومنها أن جملة المثل لامست تجربة عميقة في النفس، وهذه الأخيرة تشترك مع الانعكاس الذهني، فإن سبر أغوار النفس يتطلب لغة حية تتفاعل مع معطيات المجتمع والكون والحياة.

والانعكاس الذهني هو الفلسفة التي يقوم عليها التشبيه البلاغي، حيث يعتمد على الصورة الذهنية، ثم تنعكس صورة الإبل في المثل العربي الذي يحمل التشبيه كذلك.

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ. ج ١، ص ٣٧٥.

(٢) أمثال العرب، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، ط ١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٤هـ، ص ٧٧

المبحث الثاني: التقابل بين التشبيه البلاغي والمثل العربي.

يقوم التشبيه على فكرة الربط بين الصور، إذ توجد علاقة بين المشبه والمشبه به، وهذه العلاقات هي التي تعطي التشبيه البلاغي قيمته الفنية، حيث يخرج المجهول إلى المعلوم، والخفي إلى الظاهر، والعادي إلى الجميل، والأقل إلى الأكثر، وهكذا بناء على علاقة ما تجمع بينهما، ولا يقف التشبيه عند مشبه ومشبه به في النص، إذ يسبق ذلك وجود ذهني يقابل الوجود النصي، فالبناء التشبيهي يقوم (باعتباره تقابلًا للعالم وللمعنى على مستويين: ظاهر عبر تشبيه شيء بشيء، يدل عليهما لفظا المشبه والمشبه به، وخفي وهو القوة العاملة على إحداث تقابل بين شيئين بينهما تشابه لقصد من المقاصد التعبيرية)[١]، فكل تشبيه يجب أن يرتبط بتلك القوة الذهنية، القادرة على إيجاد تلك الروابط بين المشبه والمشبه به، تلك القوة تتكون من خلفيات معرفية وثقافية وفكرية، يختزنها العقل البشري، وهي ضرورة لإنتاج المعرفة.

فالانعكاس الذهني يظهر للوجود في بناء التشبيه، ولهذا لا بد من مقابلة التشبيه بالمثل وصولًا لهذا الانعكاس الذي يبنى عليه الفن البياني، والمثل العربي يعتمد على التشبيه على مستويين: الأول أن يحمل نص المثل تشبيها طريفا، والثاني يكمن في سيرورة المثل العربي، فهو يضرب للمشابهة ولا بد، فمن الوجه الأول قولهم: "إنه لأشبه به من التمرة بالتمرة"[٢]، يضرب في الشبه بين الشيئين، ومثله قولهم: "ما أشبه الليلة بالبارحة"[٣]، فلفظ المثل ينص على التشبيه، فهو أشد مشابهة به من شبه التمرة بأختها، والليلة بالليلة، وعبر بالبارحة وهي الليلة التي تسبقها؛ لقربها منها، وإلا فالليل يشبه الليل، والتمر يشبه التمر، يعني أن هذين الشيئين متشابهان تشابه التمر أو الليل، وقولهم: "ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة"[٤]، فالنص ينفي وقوع الشبه، حيث يتبادر إلى الذهن أن البيضاء شحم، والسوداء تمر، وإن اتفق الشيئان في اللون لا يعني بالضرورة اتفاقهما في الجوهر، وهذا المثل يضرب في مواضع التهم، حيث يعطى الحكم لأجل المشابهة، فيدرأ بذلك الشبهة، والتمر طعام للإبل يستدعيه في البنية الذهنية.

وقد يحمل تشبيها أعمق مثل قول: " إياكم وخضراء الدمن"[٥]، فخضراء الدمن هي المرأة الحسناء في المنبت السوء، ووجه الشبه بينهما أن تلك الخضراء يعجبك لونها، ونضارة ورقها، لكنها إنما خرجت مما تدمنه البهائم من فضلاتها، فأصلها سيء، وكذلك المرأة الحسناء، التي خرجت من منبت سوء، لا تؤمن أخلاقها وطهارة نسبها وإن حسن مظهرها، وترتبط هذه الصورة بالإبل كذلك في البنية الذهنية، فإن بعر الإبل يحمل نوى يساعد على الإنبات، فضلا عن كونها من البهائم التي ترعى، فالعمق الدلالي في المثل يظهر هذا الانعكاس للإبل.

---

(١) نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، محمد بازي، ط ٢، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٢٠م، ص ١٥٥.

(٢) مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج ١، ص ٤٤.

(٣) المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٧٥.

(٤) المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٨١.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص ٣٢.

أما المستوى الثاني فيكمن في سيرورة المثل، حيث يساق لأجل المشابهة، فالموقف الذي قيل فيه المثل، والموقف اللاحق الذي ضرب له، يشتركان في عناصر عدة، وهنا مربط المشابهة، ومستوى التشبيه، ومن هذا الباب يمكن أن يكون المثل العربي شكلًا من أشكال التشبيه البلاغي، يظهر في النسق الثقافي لمجتمع ما، فيقع التشبيه في النص، وفي السلوك والأعراف، والمواقف الاجتماعية وردود الأفعال والمنادمات وغيرها، والأصل في المثل التشبيه، ففي القصص الأولى تجارب إنسانية قابلة للتكرار، (فالله سبحانه ضرب أمثالًا بقصص الأولين، وما جرى لهم من أحداث، فقصصهم أمثال ونماذج، يقاس عليها الأشباه والنظائر، بمقتضى التشابه بين أفراد النوع البشري، أو استمرار سنن الله في الكون والحياة)[1].

ويتقابل المثل العربي بمورده ومضربه مع فن التشبيه البلاغي، فأركان التشبيه أربعة: مشبه، ومشبه به، ووجه شبه، وأداة رابطة هي أداة التشبيه، هذه البنية نصية، يقابلها بنية ثقافية تتمثل في تلك الجمل السائرة، ويمكن القول أن أركان المثل مورد وهو قصة المثل التي أنتجته، ومضرب وهو الموقف الاجتماعي التواصلي الذي يشبه المورد، وثقافة تأويلية رابطة بين الموقفين، فالمورد يقابل المشبه به، والمضرب يقابل المشبه، وكما أن بين المشبه والمشبه به وجه شبه رابط بينهما، ويمثل العلاقة بين المشبه والمشبه به، هناك بين المورد والمضرب وجه تشابه، هذا التشابه لا يعني التوافق في كل شيء، كشأن التشبيه، ففي تشبيه الفتاة بالقمر مثلًا، يكون الرابط بينهما الجمال أو الوضاءة أو استدارة الوجه، أو شيء يبدو للمتلقي عندئذ، لكنه لا يعني بحال من الأحوال أن الفتاة من حجارة وتراب كخلقة القمر تماما، وهكذا الشبه بين المورد والمضرب، لا يعني أن المضرب قصة مماثلة لقصة المورد في كل شيء، أو أنها أحداث تتكرر بعينها، فثمة شيء يحصل في الموقف التواصلي يستدعي في الذهن تلك المعاني الموجودة في المورد، وإن لم يكن هناك تماثل في جميع عناصر الموقف التواصلي الاجتماعي، فعند قولهم في المثل: يضرب في كذا وكذا، فهذا هو بمثابة وجه الشبه الرابط، فالأمثال التي تضرب في الكرم، تستدعيها مواقف الكرم، وليس لأن قصة الكرم في المضرب تتوافق بحذافيرها مع قصته في المورد.

ووجه الشبه في التشبيه البلاغي يقابله الرابط بين المورد والمضرب، والذي يعبر عنه بقولهم: ذهبت مثلًا، فهي ليست مجرد جملة سائرة مشتهرة على الألسن، لكنها تعبر طريقها في الأزمنة، تستدعيها مواقف مشابهة، فجملة المثل بما تحمله من حكمة، وأبعاد اجتماعية وثقافية، هي وجه الشبه الرابط، فالموقف الأول "المورد"، والموقف الثاني "المضرب"، يربط بينهما المثل السائر، حيث يستدعي في الذهن معاني كثيرة تجعل الموقفين متشابهين، ومن ثم فإن الحكم عليهما سيكون نفسه، ومثال ذلك ما جاء في المثل العربي: (تغدّ بالجدي قبل أن يتعشى بك، يضرب في أخذ الأمر بالحزم)[2]، فالمرء في حياته معرّض لما يوجب منه الحزم، فيعلم أين يضع رجله، متبصرا بعاقبة الأمور، وجاء في معناه: (الحزم أن تستشير أهل الرأي وتطيعهم)[3]، وهذا المثل جاء في صورة النصيحة، افعل كذا قبل كذا، والغداء والعشاء اسمان للطعام الذي يؤكل في تلك الأوقات، فالغدوة أول النهار، والعشي آخره، يقال: (غدي

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، ط ١، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ٢٠٠١م، ص ١٥٧.

(٢) مجمع الأمثال، الميداني، ج ١، ص ١٣٩

(٣) لسان العرب، ج ١٢، ص ١٣١

الرجل يغدى، فهو غديان وامرأة غديانة، وعشي الرجل يعشى فهو عشيان وامرأة عشيانة بمعنى تغدى وتعشى)[١]، والجدي صغير المعز، والمقصود ابدأ به قبل أن يبدأ بك، وبادره قبل أن يبادرك، وفز بأول الأمر، وكن على يقظة، والتعبير بمعاني الأكل في الغداء والعشاء يدل على السرعة والقضاء من الأصل، فيقال أكله إذا قضى عليه، أما التعبير بالجدي فقد ورد في المثل، والمتأمل يجد الدلالة لا تنحصر في صغير المعز، فأكله أول النهار لا يضر، لكن الجدي ليس من آكلات اللحم، فأكله في الغداء أو العشاء سواء بسواء، لكن الانعكاسات الذهنية التي يحملها لفظ الجدي، مع سياق المثل والقصد منه، تعطي دلالة أعمق، فالغداء أول النهار مع لفظ الجدي يدل على الظفر والغنيمة، مع ما يحمله من علو الهمة، فالجدوى والجدا العطية، والجدي نجم في السماء[٢]، كما أن برج الجدي له خصيصة عن غيره، فإذا (حلت الشمس ببرج الجدى يشتد البرد، ويخشن الهواء، ويتساقط ورق الشجر، وتنجحر الحيوانات، وتضعف قوى الأبدان، وتكثر الأنواء، ويظلم الجو، وتصير الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت)[٣]، فكأن الأمر وشيك جدًا، وكل ذلك مما يحمله جذر هذا اللفظ، ولا نستبعد أن يستدعي الذهن تلك المعاني جميعًا عند التلقي.

فإذا فاتك المطلوب ولم تأخذ بالعزم بعد الحزم، انقلب عليك الأمر، فما بعد النهار إلا الليل، والعشية بعد الغدو، كانت لك ثم صارت عليك، ولأن هذا مما يوجع النفس، ويضيق الصدر، ويهم القلب، كان التصوير في المثل متجانسًا مع هذا، فالجدي إن لم تأكله سيأكلك، وهذا خلاف الطبيعة، فكأن الجدي صورة المطلوب الذي حال عليك، وانقلب ضدك، كما قيل (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك)[٤]، والمثل سائر بمعناه، ولفظ الجدي رمز لما ذكرنا آنفًا، فهو يتغير في سيره بحسب الموقف الذي يرد فيه بما لا يخلف المقصود منه، فقد روي أن رجلًا ذكر الحجاج بسوء عند ابن الأشعث، فوشى به شخص إلى الحجاج فلما مثل بين يديه قال له: (ألست صاحب الكلمة التي بلغتني إنك قلتها لابن الأشعث تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك فوالله لأحبسنك عن الوساد ولأنزلنك عن الجياد)[٥]، وهو يدل على ذكاء، وتفطن للأمور قبل وقوعها، وهو مما يحمد، حتى قيل في الحرب: (وأنفع المدد للجيش هجوم الليل وينبغي أن تتغدى بالعدو قبل أن يتعشى بك)[٦]، ولا يعني أن سياق المثل سياق حرب وتوجس، بل يرد كذلك في سياق المداعبة والمزاح، كما جاء في نوادر ابن الجصاص أنه (قال يومًا لعبيد الله بن سليمان: أيها الوزير، أنت سيف الله في أرضه، فلا تقع على شيء إلا هريته، ولا يقع عليك شيء إلا هراك، فأنت مثل الشوك لا يمشي عليه إنسان إلا دخل في رجله، ولا يدخل في رجل إنسان إلا أوجعه. وانبثق له

(١) لسان العرب، ج ١٥، ص ١١٨

(٢) ينظر: لسان العرب، ج ١٤، ص ١٣٤ وما بعدها

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري شهاب الدين النويري، ط ١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ج ١، ص ١٧٦

(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر مع فريق عمل، ط ١، عالم الكتب، ٢٠٠٨م، ج ٣، ص ٢٤٧٧

(٥) ثمرات الأوراق، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي، مكتبة الجمهورية العربية، مصر، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٣

(٦) مفيد العلوم ومبيد الهموم، أبو بكر الخوارزمي محمد بن العباس، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٨هـ، ص ٥١٣

كنيف، فقال لغلامه: بادر وأحضر من يصلحه حتى نتغدى به قبل أن يتعشى بنا)[١]، ومهما اختلفت الأغراض يظل المثل ثابت الدلالة، لوجود عناصر المشابهة، مع ما فيه من الظرافة التي ساعدت على انتشاره.

ويشترك التشبيه مع المثل في الذيوع والانتشار، يقول المبرد: (والتشبيه جارٍ كثيرا في كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم، لم يبعد)[٢]، ولغة المثل قريبة من أفهام الناس، تجري في كلامهم، ولارتباط المثل بالتشبيه كان كالفرع عنه، وهنا يحسن الإشارة لنوع من التشبيه يكون في التمثيل، فالتشبيه التمثيلي يتعلق بوجه الشبه، حيث لا تكون العلاقة بين المشبه والمشبه به واضحة بينة أول وهلة، وإنما تحتاج إلى إعمال فكر، وطول تأمل، إما لكونها من قبيل المعقولات، أو لأنها هيئة مركبة لا يصح فصلها عن بعضها، وإما لكونها حقيقة غائبة أو منسية يراد التنبه لها، كما جاء في المثل القرآني، فالأمثال القرآنية ضربت ابتداء، كقوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾[٣]، أي أنها جملة حكمة وبيان، يصح القياس عليها، وهي عين وظيفة المثل، ولهذا دعا القرآن الكريم للتفكر في الأمثال، كما في قوله تعالى:﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤]، فيقيسون حالًا بحال، ويعتبرون، وأورد الشنقيطي في أضواء البيان أن المثال يقال على وجهين: (أحدهما: بمعنى المثل نحو مشبه ومشبه به، قال بعضهم: وقد يعبر بهما عن وصف الشيء، نحو قوله تعالى: مثل الجنة التي وعد المتقون، والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أن الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط، والشكل يقال فيما يشارك في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال: ليس كمثله شيء)[٥].

والتشبيه التمثيلي يساق على سبيل الاستعارة، فهو يستعير الجملة لتحمل معنى المثال، كمثل قولهم: فلان يقدم رجلا ويؤخر أخرى، وهم لا يقصدون حقيقة التقديم والتأخير، إنما يراد بذلك التردد في الأمر، وهو مثل يضرب لذلك، ومتى ما كثر وذاع التشبيه التمثيلي صار مثلًا، يقول السكاكي: (إن التشبيه التمثيلي متى فشا استعماله على سبيل الاستعارة لا غير سمي مثلا ولورود الأمثال على سبيل الاستعارة لا تغير)[٦].

---

(١) نثر الدر في المحاضرات، منصور بن الحسين الرازي أبو سعد الآبي، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ج ٧، ص ٢٠٧

(٢) الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٧هـ، ج ٣، ص ٧٠.

(٣) سورة الحج: ٧٣.

(٤) سورة الحشر: ٢١.

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ج ٨، ص ٦٥.

(٦) مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ص ٣٤٩

فإذا كثر استعمال التشبيه التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية لحقت بالأمثال، فاكتسبت صفة الثبوت، فلفظها لا يتغير، فهي تجري مجرى المثل، والمتأمل في طرائقها يجد أن ثمة تقابل بين ورود المثل وورود التشبيه التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية في الموقف البلاغي، فقولهم "الصيف ضيعت اللبن" أو قولهم "تقدم رجلا وتؤخر أخرى" هذه الألفاظ لا تقصد لذاتها، إنما لمعنى آخر تحمله، فليس ثمة لبن ولا صيف، وليس ثمة رجل تتقدم وتتأخر، بيد أن هناك معنى يتناسب مع الموقف البلاغي التواصلي، وهنا سر خفي، يرجع إلى التضمين الذي تحمله لغة تلك الجمل، مما يؤهلها أن تكون كالاستشهاد على أحداث الموقف البلاغي، فإن المثل من قصته، بمنزلة الشاهد، فمورد المثل قد تطول حكايته، لكن جملة المثل هي موضع الشاهد، ومربط الفرس، كما يحصل في الاستعارة التمثيلية، فهي شاهد مؤكد، وداعم موثق لمعاني أريدت في موقف ما.

ويأتي التشبيه في بعض صوره على هذا النحو، أي إيراد شاهد ودليل لمناسبة تجمع بينهما، كما في التشبيه الضمني، أي الكلام الذي يتضمن التشبيه في غير قوالب التشبيه المألوفة، فهو يفهم من السياق، وبمعنى أوضح يكون التشبيه في جملتين، جملة ابتداء، وجملة شاهد ودليل على صحتها، فكأن المتحدث يضرب لكلامه مثلًا يؤيد ما يقول، كما قال المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

فالشطر الأول من البيت شرط وجواب، فمن استمرأ المهانة هان حتى لا يشعر بها، على نحو قول العرب: كثرة المساس تعدم الإحساس، ثم ساق في الشطر الثاني ما يدعم هذا المعنى على سبيل الاستشهاد، فالميت لا يشعر بالألم، ووجه ذلك يرجع إلى المشابهة على سبيل الاستشهاد والتمثيل، الذي هان واستسهل الهوان هو بمنزلة الميت، فاقد الإحساس، ويدخل في هذا الباب التمثل بالشعر، ومن الأشعار ما سار بين الناس واشتهر، فضرب المثل به استشهادًا، وقد ساق الثعالبي جملة من تلك الأبيات السائرة، مثل قول عمرو بن معدي يكرب:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقول معن بن أوس:

وفي الناس إن رثت حبالك واصل وفي الأرض عن دار القلى متحول.

وقوله:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وقول الكميت:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فلا رأي للمضطر إلا ركوبها

وقول بشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه[1]

ومستويات التشبيه في المثل تجعل للانعكاس الذهني مستويات كذلك، بحسب تجذر الصورة الذهنية للإبل، تظهر في تأمل الأمثال الواردة فيها.

(١) ينظر: التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط ٢، الدار العربية للكتاب، ١٤٠١هـ، ص ٦٥ وما بعدها

المبحث الثالث: أمثال الإبل في ضوء الانعكاس الذهني.

الصورة المتجذرة للإبل في الذهنية العربية، جعلت أمثال الإبل تتميز بمميزات منها: شيوع هذه الأمثال وسيرورتها رغم اختلاف وسائل النقل، فالإبل اليوم ليست كحالها أول الأمر في جزيرة العرب، لكنها بقيت محتفظة برمزيتها الثقافية، ومكانتها الاجتماعية، فهي من أنفس الأموال، وهذا كفيل بجعلها تسيطر على الأهواء، حتى أولئك الذين لا يملكون الإبل، يرونها شيئًا مهمًا، ولأن المثل يقابل التشبيه، فلهذه الأمثال ثلاثة أضرب: الضرب الأول تذكر فيه الإبل صراحة، والضرب الثاني: تذكر صفاتها وشيء من خصائصها، والضرب الثالث: تذكر ألفاظ لها علاقة بالإبل، وهذه الأضرب تتدرج نحو العمق، مما يدل على (تغلغل هذا الحيوان الصحراوي عن طريق ألفاظه إلى وجدان العربي، فأصبح جزءًا من لفظه الراقي من غير أن يحس بشيء من ذلك)[١].

والانعكاس الذهني يظهر في هذه الأضرب على مستويين: بسيط وعميق، فالبسيط يتمثل في انعكاس الواقع، وهي نظرية قديمة في الأدب، ترى أن الأدب هو انعكاس للواقع، غير أن الأدب ليس نقلًا حرفيًا للواقع، ولكنه شكل خاص من أشكال انعكاسه[٢]، وهذا المستوى يكون في الضرب الأول الذي تذكر فيه الإبل صراحة، فبيئة العرب صحراوية، والإبل مكون رئيسي في حياتهم، فينعكس ذلك في الأدب، أما المستوى العميق فيتمثل في ألفاظ قد تبدو في أول الأمر أنها لا ترتبط بالإبل، لكن التحليل العميق لها يكشف الانعكاس الخفي فيها، حيث تأتي ألفاظ الإبل في سياقات ثقافية ومعرفية وبلاغية لا تكشف عن الإبل صراحة.

ومن تلك الأمثال:

ما كان على الضرب الأول نحو قولهم: (لا ناقتي في هذا ولا جملي)[٣] ويضرب في التبرؤ من الظلم والإساءة، والجمع بين الناقة والجمل هنا فيه دلالة على الإيغال في التبرؤ، ذلك أن الإبل تكتفي بنفسها، فمعها وكاؤها وسقاؤها، فكأن الأمر قد جمع من طرفيه تذكيرًا وتأنيثًا، وهو بمعنى: ليس لي في الأمر شيء، واختصر كل شيء في الناقة والجمل، بما في ذلك سرائر النفوس، فالظلم والإساءة تبعث في النفس ألما يولد حقدًا، والإبل معروفة بالحقد وغلظة الكبد، كما أن الجمل يجتر، والكلام كالطعام، فهو لا يلوك الأمر الذي تبرأ منه، ولا يعيد فيه القول، والمتأمل في صفات الإبل يجد أن نفي وجود الجمل والناقة، ليس مجرد نفي وجودية حيوان مألوف، فالانعكاس هنا مبني على تجربة قريبة، وفي المقابل يحدث لدى المتلقي تصورًا ذهنيًا، أي (عملية عقلية يقوم بها الذهن لإدراك المعاني المجردة أو تكوينها)[٤].

ومنه قولهم: (كالحادي وليس له بعير)[٥]، يضرب لمن يتشبع بما لا يملك، والإبل تساق بالغناء، فينشط سيرها، وتطرب له فيخف السفر، وهو أصل الغناء كما قيل، فالعرب تحدو للإبل، ثم توسع الأمر، فالحداء خاصة

---

(١) تعميم الدلالة في ألفاظ الإبل، عبد الرزاق الصاعدي، ص ١٣٢

(٢) ينظر: في النقد الأدبي الحديث مدارسه ومناهجه وقضاياه، د. محمد صالح الشنطي، ط ٣، دار الأندلس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م، ص ١٧٧

(٣) مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٢٢٠

(٤) الصورة الذهنية دراسة في تصور المعنى، سمير أحمد معلوف، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، مج ٢٦، ع ١،٢، جامعة دمشق، ٢٠١٠م، ص ١٣٦

(٥) . مجمع الأمثل، ج ٢، ص ١٤٢

ما يكون للإبل، فالحادي الذي ليس له بعير، فقد سبب الحداء، والصوت حيلة العاجز، فكأنه يوهم بامتلاك الإبل، وليس ثمة بعير! ويكثر الكلام فيما لا يستطيع، مثل قولهم: (أوسعتهم سبًا وأودوا بالإبل)[١]، وقصته (أن رجلًا من العرب أغير على إبله فأخذت، فلما تواروا صعد أكمة وجعل يشتمهم، فلما رجع إلى قومه سألوه عن ماله، فقال: أوسعته سبا وأودوا بالإبل)[٢]، لمن ينكى فيه عدوه، ولا يكون له منه إلا الوعيد[٣]، فالسباب لن يأتي بالإبل، بيد أنها في مقابلة الضراب بالسيف، أو المجابهة في النزال، فهو يعطي صورة في نفسه، تجعله ينكل بالعدو، لكن حقيقة الأمر أن الإبل راحت، فصار سبابه كسحابة رعد لا تمطر، وكلاهما صوت في مقابل امتلاك الإبل، فالحادي والشاتم عدوه لا يملكان سوى التنغيم، وهو مثل سائر ما بقيت التجربة.

ومن الضرب الثاني قولهم: (يخبط خبط عشواء)[٤]، يضرب لمن يسير في أمره على غير هدى، كالناقة العشواء لا تبصر ما أمامها، فتخبط بأخفافها، وأصل العشو ضعف الإبصار، ومنه قيل للذي لا يهتدي فيتخبط "عشوائي"، نسبة للعشواء، وإن كان العشو يصيب الإنسان والإبل والدواب عامة، إلا أن الناقة لها هيئة خاصة عندما تصاب به، تجعلها محط تأمل، فهي ترفع رأسها ولا تنظر إلى موضع أخفافها، فتخبط وربما كسرت وآذت وهي لا تشعر، وكذلك العشوائي لا يمكن التنبؤ بما سيفعله، فخطواته غير محسوبة، واتجاهاته غير منضبطة، فهو يتخبط كما قال زهير بن أبي سلمى:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرم

وهنا يظهر الانعكاس الذهني العميق، حيث لفظ العشواء وهو يعود على الإبل حقيقة، لكن الاستعمال التداولي جعل الصورة الذهنية للناقة تنعكس لا شعوريا في الاستعمال، فالمتلقي يستحضر معنى العشوائية لا الناقة، رغم أن التشبيه ظاهر في المثل.

ومنه قولهم: (أضربه ضرب غرائب الإبل)[٥]، إذا أراد أن يوغل في العقوبة، ويزيد في الألم، وغرائب الإبل هي الإبل الغريبة عن الذود، الدخيلة عليه، ترد معه فتزاحمه على الماء، فيضربها رب الإبل ضربًا موجعًا لتبعد عنه ولا تخالطه، فيحمي حوضه منها، فالإبل الغريبة لها تعامل مختلف، وهي حال تشبه تكوين القبائل في جزيرة العرب، فللعرب عناية كبيرة بعلم الأنساب، ينفون عنهم الدخيل، وينبذون الغريب، مما ساهم في صفاء أحسابهم، وأصالة أنسابهم، وجلاء أفهامهم، وقريب منه قولهم (إبلي لم أبع ولم أهب)[٦]، يضرب للظالم يخاصمك فيما لا حق له فيه، فلا تختلط إبل بإبل، ولهذا ابتكرت العرب الوسم، وهي علامات يتخذها العرب في الإبل لتمييزها عن بعضها، وإثبات ملكيتها، فيسهل معرفتها وذب الغريب عنها.

---

(١) المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦٣

(٢) المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦٣

(٣) التمثيل والمحاضرة، ص ٣٣٦

(٤) مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٤١٤

(٥) المرجع السابق، ج ١، ص ٤١٩

(٦) المرجع السابق، ج ١، ص ٥٦

ومن هذا الضرب كذلك قولهم: (استنوق الجمل)[١]، أي جعل الجمل ناقة، وحمل عليه من صفاتها، ويضرب فيمن يلبس الشيء صفات غيره مما لا يعرف فيه طبعا وخلقة، فقد لمحوا صفات الإبل حتى تشربوها فقالوا: (أخف حلما من بعير)[٢]، فهو يضرب لمن يمتاز بعظم الجسم مع قلة العقل.

والبعير على عظم خلقته يصرفه الصبي كيفما يشاء، كما يقول الشاعر:

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير

يصرفه الصبي لكل وجه ويحبسه عن الخسف الجرير[٣]

ولعل قائلًا أن يقول لم لا يعدون ذلك من التسخير، عوضا عن سخريتهم بالبعير، وهذا المعنى بعيد، والعرب لماحة، فلما كان البعير ينقاد مع صبي، والصبي معدود من جملة السفهاء، كان ذلك دليلا على عقل البعير، فمن مشى خلف السفيه، ففي عقله شيء، أخذ من المجاراة، وهو مشاهد معلوم، كما يقول الشاعر:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير.

ومنه قولهم: (أمهلني فواق الناقة)[٤]، وهو مقدار ما بين الحلبتين، والمقصود سرعة الوقت وتقليله، ورغم أن العرب تتخذ النجوم وحركة الشمس والقمر أساس في تحديد الأزمنة، إلا أن ضرب هذا المثال يدل على أن ما يرتبط بالناقة معلوم ثابت، فلو قلت إلى صلاة العصر أو طلوع الشمس، لم يجهله أحد، وكذلك فواق الناقة، وكلما اتصل الفعل وشاع صار علمًا على الزمن، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يقيسون الزمن بتلاوة الآي، فحين سئل زيد بن ثابت رضي الله عنه: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية، والعرب تقدر الأوقات بالأعمال[٥].

ومنه قولهم: (ألق حبله على غاربه)[٦]، وأصله أن الناقة إذا أرسلت للمرعى، ترك حبلها على الغارب لئلا يعيقها في الرعي، والغارب أغلى السنام، وهو يضرب لمن تكره معاشرته، كأنك تقول دعه يذهب حيث يشاء، وربما توسع استعماله ليشمل كل من ذهب بلا حسيب ولا رقيب، تشبيها بالناقة التي ترعى بلا خطام، ومنه قولهم: (عمل به الفاقرة)[٧]، أي الأمر العظيم والداهية الدهياء، فعمل له عملا كسر فقاره، والفاقرة كاسرة الظهر، ومنه سمي الفقير فقيرا، أي مكسور الظهر كناية عن الفقر، (وأصل الفاقرة الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى تخلص إلى العظم)[٨]، والأمثال في صفات الإبل كثيرة، بيد أنه يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

---

(١) المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٣

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥٤

(٣) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥٤

(٤) المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٦٨

(٥) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، دار الفكر، بيروت، بدوت تاريخ، ج ١٠، ص ٢٩٩

(٦) مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٢١٠

(٧) المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٤

(٨) فتحُ البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ، ج ١٤، ص ٤٤٥

فهذا الضرب من أضرب التشبيه في المثل يتداول صفات الإبل، وليست كلها معرفة لدى عامة المتلقين، إلا أن حضور تلك الصفات يظهر في النظر أثر الانعكاس الذهني المتجذر لصورة الإبل، وقد تأتي في التعبير من غير الأمثال، كقولهم: جفلت المرأة، إذا فزعت وهربت، وأصلها صفة للناقة، فكون المبدع ينتج ذلك النص من دون وعي وقصد للإبل فهو مؤشر على عمق الانعكاس الذهني.

أما الضرب الثالث من هذه الأمثال مثل قولهم: (الحركة بركة)(١)، وتعني أن التحرك يجلب البركة، وهي الخير العميم، وقد يبدو المثل أول وهلة أن ليس له علاقة بالإبل، وليس كذلك، في هذا الضرب ألفاظ أصلها يعود إلى الإبل، ثم توسع في استعمالها، مع بقاء تلك الانعكاسات الذهنية تحملها تراكيب المثل، ويكون تداولها بعيدًا عن المفهومات المباشرة للإبل، لكنها تدل على عمق الفكرة، وتجذر المعنى كما سلف، فالبركة مشتقة من بروك البعير، يقال (برك البعير إذا أناخ في موضع فلزمه، قال ابن الأثير في تفسيره: معنى "وبارك على محمد": أي اثبت له وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة، وهو من برك البعير إذا أناخ في موضع فلزمه)(٢).

ومنه قولهم: (اعقل وتوكل)(٣)، أي أحكم وثاق الأمر ثم امضِ، ويوصف الحازم في أمره من أهل النهى بأنه عاقل، والعقل هو الذي يميز الإنسان عن غيره من سائر الحيوانات، وأصل العقل (مصدر قولك: عقلت البعير أعقله عقلًا، وهو مشتق من أصل حسي هو عقال البعير الذي تشد به بعض قوائمه، لتقييد حركته وضبطها، أو تثنى به يد البعير إلى ركبته فتشد به)(٤)، ومنه قيل: (أعقل الناس أعذرهم للناس)(٥)، لأن العقل يمنع صاحبه ويعقله عما يشين كما يعقل البعير.

ومنه قولهم: (رب حال أفصح من لسان)(٦)، ورب حال أبلغ من مقال، يضرب في الاستغناء عن الكلام لدلالة غيره عليه، وفي الصمت إطلاق للفكر والتأمل، وليس من رأى كمن سمع، ويظهر للمرء من الأحوال ما لا تسعه الأقوال، وأصل الفصاحة في اللبن، يقال: (أفصح اللبن: ذهب اللبن عنه، وأفصحت الشاة والناقة خلص لبنها)(٧)، ومنه قولهم كذلك: (لله دره)(٨)، يضرب عند التعجب، وأصله أن خيره وعطاءه لله، والدر بالفتح لبن الناقة.

ومنه قولهم: (الخطَب مشوار كثير العثار)(٩)، والمشوار هو مكان تعرض الإبل وسائر الدواب للبيع، ثم استعير للخطب، لأن الخطيب يعرض عقله وفكره للناس، وقد قيل لعبد الملك بن مروان (عجّل عليك الشيب يا أمير

(١) مجمع الأمثال، ج ١، ص ٢٣٠
(٢) تعميم الدلالة في ألفاظ الإبل، ص ١٠٧
(٣) مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٢٦
(٤) تعميم الدلالة في ألفاظ الإبل، ص ١٢٠
(٥) مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٤٥١
(٦) المرجع السابق، ج ١، ص ٣١٤
(٧) لسان العرب، ج ٢، ص ٥٤٤
(٨) مجمع الأمثال، ج ٢، ص ١٩١
(٩) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٤

المؤمنين، قال: شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن)[1]، فمشوار الخطب كثير العثار، أي السقوط والزلل، وزلة اللسان أودى من زلة القدم، ثم صار المشوار للمسافة التي يقطعها الإنسان.

والانعكاس الذهني في هذا الضرب شديد الخفاء، لأن العربية واسعة الألفاظ، كثيرة المعاني، والجزم بأن هذا اللفظ من ألفاظ الإبل يحتاج إلى معرفة عميقة باللغة وتاريخها وارتباطها بالإبل، فما ثبت منها فهو يدل دلالة كبيرة على أن صورة الإبل قد امتزجت في لحم العربي ودمه، لا كبقية الصور التي تمر عليه ويتداولها.

وهكذا تبين أضرب الأمثال كيف تتجذر الصورة الذهنية للإبل، وكيف تتأتى انعكاساتها في النص مهما اتسعت محيطات تداولياته.

الخاتمة:

وبعد، فقد خلص البحث إلى نتائج من أهمها:

١- الانعكاس الذهني يقدم قراءة أخرى لفن التشبيه.

٢- الذخيرة اللغوية التي تكونت عن الإبل أثرت في بناء التشبيه التمثيلي.

٣- الانعكاس الذهني ينتج سلوكًا لفظيًا وغير لفظي يُقرأ من خلال الموقف البلاغي.

٤- للانعكاس الذهني مستويان بسيط وعميق بحسب التجربة الإنسانية المختزنة.

٥- كلما اقترب المثل من التجربة الإنسانية أصبح أكثر قدرة على التمظهر النسقي.

٦- الهدف من ضرب المثل هو استدعاء التجربة السابقة في الذهن، لأن التوافق في الأحداث توافق في النتائج كذلك.

٧- الانعكاس الذهني قوة معرفية مؤثرة في تأليف النص، تتصل بالعقل الجمعي والتجربة الإنسانية.

٨- استعمال ألفاظ الإبل يدل على وجود الانعكاس الذهني للمبدع.

٩- المستوى العميق المركب للتشبيه يظهر في المواقف التداولية للمثل العربي.

١٠- التطور في المراكب لم يؤثر في تلقي العربي لأمثال الإبل.

١١- تتدرج مستويات الانعكاس الذهني نحو العمق.

١٢- تداول أمثال الإبل في العصر الحديث يدل على تجذر صورة الإبل في الأذهان مما لا يدع في تداولها غرابة.

المراجع:

إبراهيم، حمد النيل محمد الحسن (٢٠٠٣م). أثر الإبل في خيال العرب. *مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية*. سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٥، (١٨) ، ص ٦٤.

ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي (بدون تاريخ). ثمرات الأوراق. مكتبة الجمهورية العربية، مصر.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (١٤١٤هـ). *لسان العرب*. الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، ط٣، دار صادر، بيروت.

(٨) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢، ص ٢٥

أبو العباس، محمد بن يزيد المبرد (١٤١٧هـ). *الكامل في اللغة والأدب*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر العربي، القاهرة.

الآبي، منصور بن الحسين الرازي أبو سعد (٢٠٠٤م). *نثر الدر في المحاضرات*. تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

بازي، محمد (٢٠٢٠م). *نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب*. ط ٢، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (١٤٠١هـ). *التمثيل والمحاضرة*. تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو. ط ٢، الدار العربية للكتاب.

الخوارزمي، أبو بكر محمد بن العباس (١٤١٨هـ). *مفيد العلوم ومبيد الهموم*. المكتبة العنصرية، بيروت.

الراغب، عبد السلام أحمد (٢٠٠١م). *وظيفة الصورة الفنية في القرآن*. ط ١، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب.

السعدي، عبد الرزاق عبد الرحمن (٢٠٢٠م). المثل العربي: دراسة لغوية تحليلية. *مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، جامعة العلوم الإسلامية العالمية – عمادة البحث العلمي، مج ٧، ع ٢

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (١٤١٨هـ). *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*. تحقيق: فؤاد علي منصور، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (١٤١٥هـ). *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

الصاعدي، عبد الرزاق بن فراج (١٩٩٧م). *تعميم الدلالة في ألفاظ الإبل. الدارة*، دارة الملك عبد العزيز، مج ٢٣، ع ١.

الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم (١٤٢٤هـ). ط ١، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

عمر، د أحمد مختار عبد الحميد مع فريق عمل (٢٠٠٨م). *معجم اللغة العربية المعاصرة*. ط ١، عالم الكتب.

العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد (بدون تاريخ). *عمدة القاري شرح صحيح البخاري*. دار إحياء التراث العربي، دار الفكر، بيروت.

القزويني، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد (بدون تاريخ). *سنن ابن ماجة*. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري (١٤١٢هـ). *فتح البيان في مقاصد القرآن*. عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت.

اللاوي، الحسن عبد اللطيف محمد (٢٠١٦م). التصوير بالإبل وهيئاتها وأحوالها في القرآن الكريم. *مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط*، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بأسيوط، ع ٣٥، ج ٣.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (بدون تاريخ). *مجمع الأمثال*. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري شهاب الدين (١٤٢٣هـ). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. ط ١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

الشنطي، محمد صالح (٢٠٠٥م). *في النقد الأدبي الحديث مدارسه ومناهجه وقضاياه*. ط ٣، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل.

معلوف، سمير أحمد (٢٠١٠م). *الصورة الذهنية دراسة في تصور المعنى*. مجلة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، مج ٢٦، ع ١،٢.